أم كلثوم تغني رباعيات الخيام

للأستاذ محمود عبد العزيز

سنستمع فى الخميس ٧ ديسمبر إلى أم كلثوم وهى تنشدلنا شعراً جديداً من اللون الصوفى وهو مختارات من رباعيات عمر الخيام ، ولعل رقة الذوق فى أم كلثوم هى التى جعلتها تختار من هذه الرباعيات « قصيدة التوبة » كما أنه كان لهذا الذوق -ولاشك- دخل فى اختيار هذه الرباعيات من ترجمة الأستاذ احمد رامى فانه برغم أن هذه الرباعيات تعتبر شعراً عالميا اشترك فى ترجمته من الفارسية كثير من كتاب الشرق والغرب الا أن أغلب النقاد يعتبرون ترجمة الأستاذ رامى أصفى هذه التراجم وأنقاها حين ترجمت من الفارسية مباشرة .

ولقد ظلت رباعيات عمر الخيام مغمورة بين الكتب القديمة حتى استطاع الأستاذ كويل أحد أساتذة جامعة أكسفورد العثور على أقدم نسخة فى مكتبة بودليان بأكسفورد ثم عهدبها إلى الشاعر الانجليزى فتزجيرالد حيث درسها وأخرج لها أول ترجمة سنة ١٨٥٩ .

ولم تلق هذه الرباعيات رواجاً فى بادىء الأمر ثم بدأت تشتهر حتى تأسس ناد باسم الخيام فى لندن سنة ١٨٩٢ ... وأقبل الأدباء والشعراء بعد ذلك على دراستها ومن أشهر هؤلاء المستشرق الروسى نزوكفسكى الذى وجد اثنين وثمانين « رباعية » مدسوسة على الخيام . . .

وحار الأدباء فى فهم الخيام، فمنهم من اعتبره ماجناً لا يعتقد بالأديان ولا يؤمن بالحياة الآخرة وبعضهم عده من الصالحين الصوفيين .. وهو بالرغم مما يظهر فى رباعياته من الشك مؤمن بوجود الله ووحدانيته حتى أدخل الصوفيون بعض أشعاره فى أورادهم ومع ذلك فإن بعضهم ناصبه وهدده بالقتل فاعتكف فى منزله وأعرض عن لقاء الناس..

وترجمة الأستاذ رامى لهذه الرباعيات من الفارسية الى العربية قد جاءت حين أرسلته دار الكتب المصرية الى باريس لدراسة اللغة الفارسية فعثر على نسخة منها لمسيو نقولا التى قام بنشرها فى عهد نابليون الثالث فنقلها الى العربية .

وتبدأ رباعيات الخيام بهذه الأبيات هكذا :

سمعت صوتاً هاتفاً فى السحر
نادى من الحان غفاة البشر
هبوا املأوا كأس الطلا قبل أن
تفعم كأس العمر كف القدر

أحس فى نفسى دبيب الفناء
ولم أصب فى العيش الا الشقاء
يا حسرتا ان حان حينى ولم
يتح لفكرى حل لغز القضاء

* * *

أفق وصب الخمر أنعم بها
وأكشف خفايا النفس فى حجبها

ورد أوصالى بها قبلما
يصاغ دن الخمر من تربها

* * *

سمعت فى حلمى صوتاً أهاب
ما فتق النوم كمام الشباب
أفق فإن النوم صنو الردى
أشرب فثواك فراش التراب

* * *

هات اسقنيها أيهذا النديم
أخضب من الوجه اصفرار الهموم
وإن أمت فاجعل غسولى الطلا
وقد نعشى من فروع الكروم

ومما تختاره أم كلثوم لغنائها هذه الأبيات من الشعر الصوفى:

ان لم أكن أخلصت فى طاعتك
فاننى أطمع فى رحمتك
وإنما يشفع لى أننى
قد عشت لا أشرك فى وحدتك

* * *

تخفى عن الناس سنا طلعتك
وكل ما فى الكون من صنعتك
فأنت مجلاه وأنت الذى
ترى بديع الصنع فى آيتك

* * *

ان تفصل القطرة عن بحرها
ففى مداه منتهى أمرها
تقاربت يا رب ما بيننا
مسافة البعد على قدرها

* * *

يا عالم الأسرار علم اليقين
يا كاشف الضر عن البائسين
يا قابل الأعذار فئنا إلى
ظلك فاقبل توبة التائبين